الفصل الحادى عشر

التربية الأوروبية فى العصور الوسطى

....وكان أن دب الفساد فى أوصال الإمبراطورية الرومانية ، وقامت القسطنطينية تتحدى روما المتداعية ، وانتقلت إليها السلطة شاطرة الإمبراطورية شطرين منذ القرن الرابع الميلادى . وفى غضون هذا القرن كانت القبائل الجرمانية الآتية من الشمال قد استوطنت أجزاء مختلفة من البلاد ، وكانوا يدخلونها إما باعتبارهم أسرى حرب أو عمالا فى الأرض أو للخدمة فى الجيش . على أن تزايد عدد الجرمان أتاح لهم الفرصة لتكوين دويلات خاصة بهم .

وقد تولى جستنيان عرش بيزنطة (٢٥٧ — ٥٦٥ م) ، الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وحاول استعادة أملاك الإمبراطورية فى الغرب ، فسير جيوشه فى شمال أفريقيا محارباً قبائل الفندرل واحتل عاصمتهم قرطاجنة ودمر مملكتهم ، وكان ذلك عام ٥٣٣ م ، ثم أرسل إلى حكام روما ، وهم من القوط الشرقيين ، يطلب منهم الاعتراف بسلطانه ، وترك الكنيسة وشأنها ، وتقديم ثلاثة آلاف قوطى ليخدموا فى جيشه ودفع جزية له ... الخ . ومع انتصار الشرق إلا أن الأمور عادت إلى الفوضى وعم الفقر إيطاليا وانتشر فيها الجهل ، خاصة وأن اللومبارديين والفرنجة كانوا يغزون الأراضى الإيطالية من الشمال . وتقاسم السلطان السياسى فى إيطاليا خلال القرنين السابع والثامن ملوك الفرنجة والبابوية والإمبراطورية الرومانية الشرقية واللومبارد وغيرهم . ثم بدأت السيادة السياسة تتحرك شمالا إلى الممالك الفرنجية فيما يطلق عليه اليوم فرنسا وألمانيا . ثم اتحدت بعض الممالك الفرنجية تحت زعامات موحدة ، ولعل أشهر الزعماء كان كلوفيس : وقد انسلخت السلطة أحياناً كثيرة إلى كبار

رجال القصور ، ويذكر التاريخ أن شارل مارتل (شارل المطرقة) كان أحدهم وهو الذى هزم العرب فى محاولتهم السير من أسبانيا براً إلى القسطنطينية وكان ذلك فى موقعة تور فى جنوب فرنسا عام ٧٢٢ م . وخلف مارتل ابنه بين القصير الذى لبىّ دعوة البابا لإنقاذه من الحركات الفكرية الهدامة الآتية شرقاً من اليونان واللومبارد النازحين من الشمال . ومكافأة لبين فقد عينه البابا ملكاً على الفرنجة . كما منح بين البابا شريطاً من الأرض فى وسط إيطاليا أصبح فيما بعد الدويلات البابوية .

ثم خلف بين ابنه شارلمان الذى أصبح ملك الفرنجة والذى خرج ليوسع حدود مملكته شرقاً إلى نهر الألب وشمالا إلى بحر الشمال وجنوباً إلى البحر المتوسط . وفى يوم عيد الميلاد عام ٨٠٠ توج البابا شارلمان إمبراطوراً رومانياً وأصبح شارلمان الخليفة الشرعى لأباطرة الرومان الأقدمين . وقد عول شارلمان حينئذ على أن يستعيد للامبراطورية القديمة مجدها . وكانت لشارلمان صلات ودية مع خلفاء المسلمين وتبادل معهم الهدايا ، كما أنه أرسل مبعوثيه ليستمعوا إلى شكاوى وطلبات رعاياه مما أضفى على عهده سمات التقدم فى الزراعة والتعليم .

وبعد موت شارلمان بدأ الصراع بين رجالات الدولة والكنيسة وداخل أسرته للسيطرة على مقاليد الأمور ، وتمخض الصراع بعد سلسلة طويلة من الحروب الأهلية عن تقسيم الإمبراطورية إلى ثلاثة أجزاء كبيرة يمكن أن نتصور حدودها اليوم فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا . وقد أدى هذا الانقسام إلى ضعف بدأ يسود الإمبراطورية وإلى نمو تدريجى للارستوقراطيات المحلية ، والنبلاء ، ورجال الكنيسة وملاك الأرض من الحكام .

بل إن الوهن تطرق أكثر فى الإمبراطورية التى تقسمت عندما جاءها غزاة من الشمال — الفايكنج — مكتسحين الأرض الأسكندناوية . كما غزا الدانماركيون الجزائر البريطانية ، وانتشر النورمان فى نورماندیا وصقلية وإيطاليا ، ودخل السويديون أرض روسيا . وهاجم السلافيون والماجيار

الإمبراطورية من الشرق . كما أن العرب جاءوا بحراً وبراً من الجنوب محتلين جزراً فى البحر المتوسط وأجزاء من جنوب إيطاليا وفرنسا كما احتلوا أسبانيا .

وعم الإمبراطورية فزع وخوف ، فلا قانون ولا قوة تحمى الأهالى ، ولكن كان كل هذا داعياً لأن تتبلور وتتمركز السلطة فى يد رجال أقوياء كل فى منطقة يملك أرضها ويحتمى بقلعة حصينة ، ويلتف حوله من يقبلون الحرب معه . وأصبح أمراء الاقطاع هم أصحاب السلطة الحقيقية القادرين على صد هجوم (الأعداء) ، ولكن كان هنالك ملوك يمارسون سلطة إسمية .

وتتميز الفترة بعد تفتت إمبراطورية شارلمان فى القرن التاسع بصراعات بين الملوك بعضهم البعض وبين الملوك والنبلاء ، فالملوك يريدون لأنفسهم سطوة أكثر . واستطاع أوتو الأول عام ٩٥٢ م أن يقتحم إيطالياً غازياً ويعلن نفسه على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولعل وصف الإمبراطورية بأنها مقدسة يظهر أثر الدين فى المسائل السياسية .

وظلت الصراعات قائمة على الأراضى شمالى غربى إيطاليا ، ثم استقرت الأمور بعض الشىء فى فرنسا التى تكونت فيها مجموعة من الدوقيات والمقاطعات والقرى الإقطاعية ، ولم يكن للملوك سلطان يذكر عليها .

أما فى الجزر البريطانية فقد استطاع وليام الفاتح على رأس النورمان عام ١٠٦٦ م هزيمة الساكسون والدانمراكيين . ومن ثم بدأ يخطو وليام بانجلترا خطوات حقيقية نحو الوحدة .

وبينما هذه الأحداث تجرى فى انجلترا فى الجزء الأول من العصور الوسطى (من القرن السادس إلى الحادى عشر الميلادى) . كان العرب قد كونوا إمبراطوريتهم المترامية من المحيط الأطلسى إلى الهند . وفى القرن التاسع بدأت الإمبراطورية العربية تتفتت وتستقل أجزاء منها ، وتتنازع فيما بينها (١) .

ثم نأتى إلى القسم المتأخر من العصور الوسطى (ويشمل الفترة من القرن الحادى عشر إلى السادس عشر الميلادى) . ومن منتصف القرن الحادى عشر

---

(١) Butts,R.F., op. cit. 137

إلى نهاية الثالث عشر كانت المحاولات تبذل لمركزة القوة السياسية فى انجلترا وفرنسا ، أما ألمانيا وإيطاليا فظل الصراع محتدماً بين الأباطرة والنبلاء فى جانب ، والأباطرة والبابوية فى جانب آخر . فيذكر التاريخ صراعاً نشب بين هنرى الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبين نيقولا الثانى والبابا جريجورى السابع . وفى القرن الثانى عشر اشتد الصراع بين فردريك باربروسا والبابا ، وبين المدن المستقلة فى شمالى إيطاليا كذلك . وقد تحالفت هذه المدن وانتزعت من باربروسا حق الحكم الذاتى عام ١١٨٣ .

وفى سنة ١١٨٧ كانت الحرب مشتدة بين العرب والصليبيين ، وفيها انتصر صلاح الدين الأيوبى فى معركة حطين واسترجع القدس . وجن جنون أوروبا وقامت حركة ترمى إلى استرجاع بيت المقدس وأخذ ملوك أوروبا فى الاستعداد للزحف بحملة كبيرة إلى الأراضى المقدسة . وقد اشترك فردريك فى هذه الحملة وكانت ثالث حملات الصليبيين ، ولكنه غرق وهو يجتاز نهراً فى آسيا الصغرى ، فى طريقه إلى تحرير الأراضى المقدسة.

وقد أثر وجود الصليبيين فى أرض العرب ، وحملاتهم المتكررة عليها على التفكير الأوروبى وعلى المجتمع هناك مما سيظهر فى معرض الحديث عن التربية على هذه الأرض فى ذلك العصر .

وعود إلى ما كان يجرى فى أوروبا فى غضون الشطر المتأخر من العصور الوسطى الذى امتد من القرن الحادى عشر إلى السادس عشر كما سبق أن بينت . ويذكر أن البابا أنوسنت الثالث تولى شئون البابوية عام ١١٩٨م ، وجعل سلطة البابوية الزمنية فوق كل سلطة مهما كان نوعها ، وكان أنوسنت سيد روما ، مقوياً نفوذه فى أواسط إيطاليا ومتدخلا فى شئون الانتخابات الإمبراطورية ، بل إنه فرض نفوذه السياسى على يوحنا ملك انجلترا والفونس ملك ليون ، وصادق ملك فرنسا وتدخل فى شئون هنغاريا ، ونصح ملوكا آخرين . . وبالاختصار فقد أصبح للبابا نفوذ فى كل أوربا .

ولكن البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤م) اختصم مع فيليب ملك فرنسا ،

فقد منع فيليب رجال الدين من المحاكمات ، وفرض عليهم الضرائب ، ثم منع الأجانب جميعهم من دخول فرنسا . . . فأصدر البابا عام ١٣٠٢م بيانا قال فيه إن خضوع كل فرد لأسقف روما (وهو البابا) أمر لازم للخلاص الروحى . ورد عليه فيليب موجها إليه عدداً من التهم ومطالبا بأن يحاكم على يد مجمع كنسى . بل أرسل جيشاً للقبض عليه ، وقد أثر عليه الموقف فمات ، وتقلصت السلطة الهائلة التى كانت فى يد البابوية .

أما ما كان يحدث فى ربوع أوروبا وقت القوة البابوية فى القرن الثالث عشر ، فان مملكتى فرنسا وانجلترا أخذتا بأسلوب الحكم الملكى المركزى القوى ، وأصبح للسكان حكومة واحدة تسعى لخيرهم ، كما ظهرت أسبانيا كدولة قوية بعد تقلص النفوذ العربى ، ووقفت البرتغال كدولة جديدة .

وإذا تركنا الجانب السياسى لننظر فى أحوال الأوروبيين فيما بين القرنين السادس ونهاية الثالث عشر الميلاديين ، فنجد :

أولا : شيوع الإقطاع : ويذكر المؤرخون (١) أن القرنين التاسع والعاشر أسبغا على أوروبا ظلمة حالكة أشد من أيام الإغارات الجرمانية العظمى التى ساعدت على هدم الدولة الرومانية ، وفى خلال هذين القرنين أخذ النظام الإقطاعى ينمو باطّراد . وقد مهدت له حركة التطور العام نحو المحلية أكدها خلفاء شارلمان بشخصياتهم الضعيفة . حتى إذا جاء القرنان الحادى عشر والثانى عشر لم تكن هناك حكومات مركزية ، وتحول ولاء الجماعات إلى السادة المحليين ممن تأسست على أيديهم أسرات إقطاعية كبرى ، ترجع أصولها فى معظم الأحوال إلى القرن العاشر الميلادى . بل أصبح امتلاك الأرض مقترناً بحق امتلاك نواصى الحكم والسلطان ، وامتلاك الأرض يعنى امتلاك من عليها وما عليها . وأصبحت الأرض والسلطة ممتزجين بعضهما ببعض . ومن ثم نشأت بين السيد والمسود علاقة تقوم على عدد من التعهدات والالتزامات متبادلة بين الطرفين

(١) كوبلاند ، ج . ر . (ترجمة محمد مصطفى زيادة) : الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا ص ٦ - ٨

وكان هناك السيد الكبير وقد يكون الملك أو لورداً وهو مسيطر على مجموعة من البارونات ، يمنح كلا منهم أرضاً فى مقابل أن يؤدى البارون لسيده خدمات حربية معينة (١) ويتعهد بالمثول أمام محكمته الخاصة للفصل فى قضايا التابعين . والبارون بموجب النظام الإقطاعى هو الحاكم فيما تحت يده من الأراضى ومن عليها من السكان . وكان من أهم واجبات البارون الحرب سواء كان ذلك تحت راية سيده فى حملة صليبية أو احتكاماً إلى السيف فى مبارزة قضائية لإثبات براءته من تهمة الخيانة أو الإجرام ، أو دخولا فى حلف إقطاعى ضد الملك أو الإمبراطور ، أو مساعدة للكنيسة فى إخماد حركة من حركات الهرطقة التى يقوم بها المارقون عليها . والصورة الماثلة فى أذهاننا عن الفارس الإقطاعى ذلك الشجاع على ظهر حصان قادر على الحركات الحربية الخاطفة بفضل استعمال الركاب فى سرج الخيل ، ثم الملابس المدرعة ، وحفلات المبارزة مع نبيـــل فى الأخلاق .

وكان البارون يسكن قصراً هو حصنه ، فقد يحدث أن يكون سيدة مشغولا عنه فى حرب بعيدة ، فلابد للبارون من قلعة تحميه ، ويعيش فيها مؤدياً واجباته الحربية ، ثم الإدارية والسياسية التى القيت عليه فيما بعد .

أما عن الأهالى والعامة فقد كانوا يعيشون فى مرحلة بين الحرية والرق وهى الحالة التى عرفت باسم القنية serfdorm فى العصور الوسطى ، والقن فلاح يعيش على قطعة من الأرض يمنحها إياه سيده متملك الدومين . وهو مربوط إلى هذه الأرض ، ولا يملك الحرية فى الانتقال عنها ، ولا يتزوج من جهة خارج الدومين التابع له إلا باذن من سيده . . ويدفع القن لمتبوعه مبالغ معينة كلما رزق مولوداً أو مات له ميت ، وفى مناسبات أخرى كثيرة . والقن ملك لسيده له حق بيعه واستبداله . وينشأ أبناء القن كأبيهم يخدمون سادتهم الذين يمتلكونهم ولا يستطيع فرد أن يسمو إلى طبقة أعلى . ولم تكن هناك إلا طبقة الأرستوقراطيين (النبلاء وكبار رجال الدين) وطبقة

---

(١) vassalage

الكادحين فى الأرض . وبازدهار التجارة وظهور المدن بدأت الطبقة الوسطى تولد . وتقف بين الطبقتين ، فهى خير من الطبقة الدنيا ، وأقل من الطبقة العليـــا .

ثانياً : ظهور المدن : بقيام جماعة التجار وتكتلهم معاً للقيام بأعمالهم مجتمعين وإنشاء أماكن مستقلة عن قلعة البارون أو النبيل بدأت تتكون طبقة تسكن (الضواحى) على مقربة من القلاع الكبيرة أو فى حمى دير كبير ، على أن تكون على طريق رئيسى ييسر نقل البضائع . وكانت هذه الضواحى بداية ظهور المدن فى أوروبا . على أن قيام أية مدينة كان يتطلب منحها (براءة) يصدرها الملك أو النبيل أو الأسقف ، ويعين فى البراءة السكان ورعويتهم وإدارة المدينة والامتيازات التى تمنح لها . وكان سكانها غالباً من البرجوازيين (الطبقة المتوسطة) وهم من التجار والصناع المتحررين من ربقة القنية الإقطاعية . ولم يكن لكل سكان المدن الحق فى الاشتراك فى إدارة المدينة واختيار مجالسها . ومن أهم مهام المجالس حماية المدن بإقامة الأسوار والقلاع وحفر الخنادق .

ثالثاً : التجارة : يرجع الفضل للحروب الصليبية فى توسع مدى التعامل التجارى بين أوروبا والشرق . كما أن التجارة فى أوروبا ذاتها بدأت تثير اهتمام الملوك والأمراء للعمل على تحسين الطرق وإقامة الجسور على الأنهار ، لما فى ذلك من فوائد تزيد ما يدخل خزائنهم من ذهب . كما وضعت القوانين لحماية التجار من اللصوص والقراصنة . وظهرت التحسينات فى بناء السفن ليزيد حجمها فتحمل أكثر . وكانت أوروبا تستورد من بلدان الشرق العربى التوابل والبرتقال والمشمش والتين والزبيب والعقاقير والأصباغ والأقطان والحرير الخام والمشغول مثل أقمشة الدمقش (دمشق) والموصلين (الموصل) والبلدشين (بغداد) والشاش (غزة) . وكانت أوروبا تصدر للشرق العربى الخشب والسلاح والأصواف وأدوات زراعية وخزف . . الخ .

رابعاً : النقابات : كان الإنتاج الصناعى الذى بدأ ينمو فى أوروبا

بحاجة إلى من ينظمه ويحميه . وقد أخذ الصناع منذ أن بدأت قيمتهم فى مجتمع المدينة تقوى بإنشاء جماعات (طوائف) صناعية تهتم بشئونهم . وكان بعضها يقوم على أساس دينى ثم تطور إلى النواحى الاجتماعية والاقتصادية ، فظهرت النقابات الصناعية والتجارية فى أكثر المدن الأوربية(١) .

وكان أعضاء النقابة ثلاثة أقسام على أساس درجة العضو فى اتقان الصناعة : التلميذ — الأجير — المعلم ، وكان يدفع رسوما قبل أن يصبح عضواً ، وكان يسكن بيت المعلم ويأكل عنده : ويخضع لرقابة معلمه الصارمة الشديدة : وتتراوح مدة التلمذة بين سنتين وسبع سنوات على حسب الصناعة . ثم يصبح التلميذ أجيراً ، ثم إذا أثبت تفوقاً وشهد له بذلك فتح مصنعاً .

وكانت هناك نقابات للتجار ، هدفها حماية أعضائها ضد النبلاء وتأمين معاملة عادلة فى الأسواق البعيدة ، والتأكد من مراعاة القوانين التجارية داخل المدينة ذاتها . وكثيراً ما كانت نقابات الصناع تتعاون مع نقابات التجار فى تنظيم الناحية الاقتصادية

خامساً : الحياة الدينية : تمركزت الحياة الدينية فى أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى حول محورين : الأول هو البابوية باعتبار أنها الرياسة العليا للكنيسة ، والثانى التنظيمات الكهنوتية ، وقد سبق أن ألمحت إلى حقائق عن الصراعات البابوية وبعض الملوك ، ورغبة فى سيطرة بابوية دينية على النواحى السياسية . ويهمنا من المحور الثانى الرهبنة وأنظمتها المختلفة . ونتكلم عن أنظمة مختلفة للرهبنة ، فعندما كان يعتور الحياة الروحية فتور كان يعيد إليها الحيوية نظام رهبنة جديد . بل اتخذ النشاط الروحى أحياناً مزيجاً من الرهبنة والعمل العسكرى كما وجد فى الفرق الدينية الثلاث وهى : الهيكليون ، وفرسان المستشفى ، وفرسان التيوتون . كما حاولت الكنيسة برجالها ورهبانها

---

(١) من أهم المدن : البندقية (١٩٠ ألف نسمة) — لندن (٤٦ ألف نسمة) — بروكسل (٤٠ ألفاً) — ستراسبورج (٢٦ ألفاً) ثم ميلان وجنوة وفلورنسا ، وكان يسكن كل منها حوالى مائة ألف نسمة .

أن تخفف من ويلات الصراعات التى استمرت أجيالا طويلة للتنازع على السلطة إبان العصر الاقطاعى ، فقام رجالها منظمين السلم الأهلى وفرض الهدنة لأهلية وفيها يمنع القتال فى أيام معينة . وكانت محاولاتهم يكتب لها نجاح كبير ..

وقد انتشرت (الهرطقة) فى أوروبا . وقد تمركزت حول محاربة الاتجاهات الدنيوية للكنيسة وسلطات رجال الدين المتزايدة . ومن جماعات الهرطقة الألبينيون نسبة إلى مدينة Albi فى جنوب فرنسا ، وقد رأوا أنفسهم مطهرين Cathari(ويسمون أيضاً الكاثاريون) فى دعوتهم للاحتجاج على فساد الكنيسة ورجال الدين . وأكدوا أن الرغبة فى الأمور المادية خطيئة ، لأن المادة شر ، وعلى ذلك فامتلاك الثروات والكذب وشن الحروب تعتبر من الخطايا .

كما احتج على الكنيسة الأرنولديون بزعامة أرنولد بريسكا ، وهاجموا جشع البابوات وتملك القساوسة للسلطة وتدخلهم فى الشئون الدنيوية ، وقاموا بتمجيد قيم الفقر والحياة البسيطة . والوالدونيون جماعة محتجة أخرى ، وهى تنسب لبيتر والدو Waldo، وقالوا إن الطاعة واجبة للبابا ورجال الدين إذا كانوا أهلا لذلك ، وتجب الطاعة أولا لله ، وقالوا إن الصلوات وتوزيع الصدقات على أرواح الموتى لا فائدة منها ، وأن الصلاة والعبادة خارج الكنائس صالحة كداخلها .

وغير هؤلاء من الهراطقة الذين شكوا فيما لدى رجال الدين من سلطات وتساءلوا عنها . واحتجوا عليها ، وطالبوا تغييرها ... وكانت بدايات التفكير الحر .

التربية فى العصور الوسطى فى أوروبا

يمكن تلخيص المثل العليا المسيحية فى العصور الوسطى بأنها أكدت :

(١) القيمة الكبرى للمسائل الروحية .

(٢) الاهتمام بالحيـــاة الآخرة .

(٣) التساوى الروحى للخلق أمام الله .

(٤) شرف العمل وتطبيق مبادىء العدالة فى العلاقات بين الأفراد العاملين .

(٥) وحدة كل البشر .

(٦) أن أول واجبات الفرد خدمة ربه وزملائه ونفسه .

ولكن الواقع العملى فى تلك العصور لم يسم إلى هذه المثل . بل لقد طغت على العقل الخرافات والبدع والأوهام ، وكان العقل يخافها جميعاً . فما زالت فيه آثار من وثنية طمرها التاريخ . كان العقل يميل ناحية الجماعة فيلفظ المارقين على التعاليم الكنسية المتفق عليها. كما كان عقلا شغوفاً بالعالم الآخر ، فتطلع من الأرض إلى السماء ، ومن المحدود إلى اللانهائى ومن المؤقت إلى الخالد . ولكن بدأ يتغير بتأثير نمو التجارة وظهور البورجوازية والحروب الصليبية واحتكاك الأوروبيين بثقافات العرب وغيرهم .

وكان هدف التربية فى العصور الوسطى مشتقاً من الظروف الاجتماعية فهدفت إلى خدمة الرب والكنيسة والخلق والنفس . وبهذا يكون للتربية غرض مزدوج مؤكداً على مطالب الكنيسة ومطالب الحياة ، ومع ذلك فان المدارس ، عدا الجامعات ، منحت تربية عامة ذات طابع أدبى دينى . وفيما يلى عرض سريع لجوانب هذه التربية .

أولا : حركة إحياء العلوم فى عصر شارلمان الذى أسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام ٨٠٠ م . وقد حاول ، ونجح فى محاولته ، أن ينقل الثقافة الرومانية ويوفق بينها وبين ثقافات جماعات البرابرة الذين اعتنقوا المسيحية ، ورمى من محاولته إلى تكوين وحدة داخلية ثقافية تربط بين سكان إمبراطوريته . وقد اعتمد شارلمان فى محاولته على كثيرين من رهبان الأديرة ومنهم الكوين AlcuinM.

كما أصدر شارلمان فى عام ٧٨٧ م أوامر إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها يلومهم فيها على استخدام الألفاظ الخشنة و « الألسنة غير المهذبة »(١)

(١) وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، ص : ١٧٥

كما حث كل كنيسة على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين وغيرهم الكتابة والقراءة .وحرص على أن يساوى فى التعليم بين القنة والأحرار ، كما أدرج فى هذه المدارس تعليماً طبياً للتنديد بما كان شائعاً من خرافات وأوهام : وكان يدرس بهذه المدارس الحساب والنحو والمزامير والموسيقى والغناء .

ومن أشهر المربين فى القرن الثامن الميلادى الكوين Alcuin (٧٣٥— ٨٠٤ م) الذى رأس دير Tours وجعل منه مركزاً للثقافة العلمية فى فرنسا . ومن رأى الكوين رفض دراسة الآداب القديمة مع عناية خاصة اهتم بها فى المظهر الصوفى . وقد اهتم الكوين بدراسة الفنون العقلية الحرة السبعة (هى الحساب ، والهندسة ، والفلك ، والتناسق الموسيقى ، والمنطق ، والبيان ، والفلسفة (، وكان يقول بجعلها أساساً للتعليم ، لأنها الأساطين التى قام عليها معبد الحكمة .

ثانياً : التصوف ، وكان للتصوف علاقة كبيرة بالأديرة ، ولذا كان المتصوفون من الرهبان . وقيمة التصوف فى تاريخ التربية قليلة ، ولكن هذا لا يمنع من معرفة شىء عنه فقد أثر فى نظام تربية المتصوفين أنفسهم . وقد احتك بعضهم أحياناً بغيرهم .

وهدف المتصوف الأسمى من الحياة الوصول إلى الكمال الروحى والعلمى ولنصل إلى هذا الهدف كان عليه أن يهمل كل ما يأتى عن طروق الحواس ، فينعزل الفرد عن هذا العالم منكمشاً فى نفسه حتى تفنى شخصيته فى عالم الأرواح وتندمج فى اللانهائية ، فيرى المتصوف ما لا نراه وتتكشف له العجائب ويعرف الأسرار الباطنية . والتصوف كأسلوب تدين هو أوسع التجارب الروحية ، وكأسلوب فلسفة هو أشدها توغلا فى المعنوية والمثالية المجردة ، وكأسلوب للتربية هو غاية الكفرة التهذيبية .

وقد عرف التصوف عند البوذيين والبرهمانيين والفارسين والمسلمين ، وإن كان عند الأخريين له أهمية أقل .

أما عن تربية المتصوفين فقد اهتمت بقيمة التفكير وأثره فى تنمية العقل

من الناحية التأملية . وتؤمن هذه التربية بإيمان المتصوفين بثلاثية طبيعية الروح ، فلها جزء حيوانى مرتبط بالجسم ، وجزء مفكر هو مظهرها الإنسانى ، ثم جزء روحانى يرتفع عن مستوى الإنسانية حيث يلتقى الإنسان بالمعقل الأسمى أى العقل المقدس . ويمكن أن نفهم الله وأن نصل إلى اللانهائية الحقيقية عن طريق التحليل والتجريد — عن طريق إهمال جميع المؤثرات الحسية والإنغماس فى أفكار الإنسان الذاتية (١) .

وكانت أول مراحل التربية الصوفية تلك التى يعمل فيها الفرد على التخلص من كل ما من شأنه أن يحجب عنه رؤية الكائن المقدس ، ومن المؤثرات الحسية ، ومن الملذات المادية والمتع العالمية ، فالفرد فى هذه المرحلة يجاهد ضد الحياة الخارجية . ثم يصل الفرد إلى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة إضاءة الحياة وتنويرها فيقوم المتصوف بالأعمال الطبية من تلقاء نفسه ، وهو هنا يجاهد داخلياً . أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة الاتحاد والحياة .

ثالثاً : الفروسية : ارتبطت الفروسية بالمثل العليا الاجتماعية الراقية . ومنزلتها فى الحياة الدنيوية كمنزلة الرهبنة فى الحياة الدينية ، والأصل فى الفروسية عمل اجتماعى أقرته الكنيسة وعهد به إلى الفرسان الذين أهلتهم قدراتهم ومكانتهم المادية من مديد العون لغيرهم . ولكى يصبح الفرد فارساً ، يخضع لنظام تربوى قوامه الأعمال البطولية والتهذيب ، فالفارس فرد مطيع مستقيم متعاون . وطبيعى أن هذه التربية اقتصرت على طبقة معينة من الأحرار الأثرياء القادرين على القيام بمهام الفارس . وقد سارت الفروسية جنباً إلى جنب مع الإقطاع مكونة كياناً خاصاً داخل المجتمع ومحتلة مكانة سامية فيه .

والفارس سيد بمعنى الكلمة ، فوعده مقدس وشجاعته لا يتطرق إليها شك ، ويمجد النصر الحربى ، ومع هذا فقد كانت له أحياناً نزوات من الغضب الجارف . وقد أعطت الفروسية لمجتمع القرون الوسطى مثلا عليا فى معنى الطاعة واحترام النظام والذات والخدمة . وقد تأثرت فى هذا بتعاليم

(١) منرو : المرجع الأسبق ، ص : ٢٨٠ - ٢٨١

الكنيسة التى علمتهم كيف يحترمون الضعفاء ويندفعون للدفاع عنهم . ومع ذلك فأحياناً كان الغضب يدفع الفارس إلى سرعة سفك الدماء ، بل وقد يكون ذلك على حساب الضعفاء ..

وتقسم تربية الفارس إلى مرحلتين ، مرحلة تربية الغلام وهى من سن السابعة إلى الرابعةعشرة ، ثم مرحلة البالغ إلى سن الحادية والعشرين : وفى المرحلة الأولى كان الغلام يقوم بالخدمة فى إحدى القلاع وخاصة خدمة السيدات ، ثم يخدم على الموائد بعد أن يكبر ، ثم يقدم فى مرحلة البلوغ عدداً من الخدمات لسيده ، ثم يصبح الخادم الشخص المباشر للفارس فى المعركة والحفلات العامة . وكان أهم ما يتعلمه الشاب الحب والدين والحرب ، فيتعلم كيف يرق ويتعطف ويتلطف ويتخير أنسب الكلام وأعذبه ؛ ويقرض الشعر والعزف على آلة موسيقية هى القيثارة مع الترنم بأغنية جميلة . ويتعلم كيف يلعب الشطرنج ويسلى النساء ويبعث السرور والمرح إلى الأفئدة .. هذا إلى جانب ركوب الخيل والمبارزة وفنون القتال المختلفة والصيد بأنواعه ، وتعليم دينى يلف كل هذا بطبقة حامية مانعة من الوقوع فى الرذيلة ، بل كان يقوم بطقوس دينية للتطهير ، ويجب عليه أن يبارك سيفه على يد قسيس . ثم يقسم الفارس فى حفل كنسى على الدفاع عن الكنيسة والنساء والفقراء . أما تربيته العقلية فكانت ضحلة اللهم إلا من تعلم الفرنسية وكانت لغة الفروسية فى العصور المتأخرة من القرون الوسطى .

رابعاً : الرهبنة والديرية : تنوعت الرهبنة فى المسيحية فهنالك الراهب المتبتل فى خشوع الذى يتخذ له مأوى وسكناً بعيداً عن العمران كالصحراء مثلا ، وعرفت العصور الوسطى أيضاً الراهب الجوال الساعى فى الأرض ملتفاً بحياة دينية صارمة . وهناك أيضاً المتصوف الزاهد فى صومعته ، ثم اليسوعى العبقرى الذى يعمل فى المدرسة . وفى الفترة بين القرنين السادس والثالث عشر لم يكن هناك من المؤسسات التربوية ما يحمل لواء النواحى العقلية سوى المدارس الكاتدرائية التى كان يدرس بها جماعات الرهبان .

ولا يتبادر إلى الذهن أن الرهبنة من اختراع المسيحيين فقد عرفها المصريون القدماء والفرس واليهود والإغريق ، وكانت ترمى إلى الوصول بالروح لأسمى درجات الكمال والزهد فى ماديات الحياة الدنيا بكبح النفس عن الشهوات والصيام والتعذيب والنشاط البدنى المستمر والنظر إلى المطالب الدنيوية نظرة ازدراء . وقد وجد مبدأ التصوف فى تعاليم المسيح أكبر مشجع لها ، تلك التعاليم القاضية بألا يفكر الإنسان فى غده وأن يبيع ما يملك ويعطى الفقير ، وأن يترك المرء أباه وأمه وزوجته وأولاده فى سبيل الله . وكذلك فى نصائح السيد المسيح المتكررة القاضية بأن يحقر الإنسان من أمر الدنيا ، ويكرس حياته لخدمة الإنجيل ونشر تعاليمه (١) . ومما يساعد على الرهبنة وتطورها ما أصاب المسيحية من اضطهاد فى سنيها الأولى مما أدى ببعض المتحمسين إلى الاعتصام بالجبال والكهوف ووحشة الصحراء فى انتظار عودة المسيح ثانية . ويذكر أن أنطونيوس كان أول من اعتصم بالصحراء على شاطىء البحر الأحمر عام ٣٠٥ م ثم تبعه فى أسلوب حياته الخشنة المتزهدة عدد كبير من المتدينين ؛ ثم تكونت جماعات احتقرت الدنس فى بعض المجتمعات وآثرت الانسحاب إلى حياة قوامها الطهر والعفة والزهد والعبادة والطاعة وعاشوا فى أديرة .

واتسمت الحياة الديرية بالتهذيب والعمل والتدريب ، فمثلا أديرة بندكت كانت تحدد يومياً سبع ساعات للعمل اليدوى أو الأدبى ، ومن ساعتين إلى خمس ساعات للقراءة . وبذلك أتيحت الفرصة للدراسة داخل جدران بعض الأديرة ، لا يشغل الراهب عن التدين والتحصيل شاغل ، خاصة أن بعض الأديرة حفظت الكتب فى خزائنها ، وكان هناك متسع من الوقت لعمليات النسخ والكتابة . بل إن القوانين الديرية كانت تحتم على كل راهب تعلم الكتابة والقراءة . وأختلفت الأديرة فيما كان يدور داخلها من تعليم وتحصيل ، فقد ازدهرت الدراسة فى بعضها بينما أقفرت فى بعضها الآخر الذى لم يكن فيه أكثر من عدة نسخ لكتاب واحد . ويلوح أن الغالبية كانت من النوع الأخير

---

(١) منرو : المرجع الأسبق ، ص : ٢٤٤

الذى ارتأى فى الدراسات الأدبية القديمة التى حرمتها الكنيسة مغريات وأمور دنيوية تتعارض مع حياة النسك والتقشف ، أضف إلى ذلك تعدد المذاهب المسيحية ، حتى فى ذلك الوقت المبكر من المسيحية حيث بلغ عددها أيام القديس أوغسطين ٨٥ مذهباً

وعرف التعليم فى داخل الأديرة على نطاق ضيق ضئيل ، فهو يتضمن القراءة والكتابة والغناء وحساب التقويم الكنسى ، وكان ذلك وقفاً على عدد قليل ممن سينخرطون فى سلك الرهبنة التى لم تقبل سناً أقل من ١٨ سنة ، ثم يدرس الطالب سنتين . أما قبل ذلك السن فلم يكن هناك تعليم يذكر . ويذكر أن شارلمان أعتنى بمدارس الأديرة بمساعدة الكوين وزيره ، فطورها حتى لا تقتصر على مجرد الأعداد للحياة الديرية فقط . وعلى العموم فان الأديرة استأثرت بالتعليم واحتكرته حتى القرن الحادى عشر . ويلوح أن هذا كان مناسباً لحياة الناس الذين ما كان يهمهم التعليم بقدر اهتمامهم بحياة القتال والحرب والتدمير .

وثمة مكرمة أسدتها الأديرة للتربية والتعليم جاءت من وحى النظام اليومى للناس . فقد أعنى بعض النساك من الأعمال العضلية الشاقة وكلفوا عوضاً عنها بنسخ المخطوطات من الأدبين اليونانى والرومانى القديمة . ويظهر أن أديرة الراهبات أسهمت بقسط كبيرة فى عمليات النسخ هذه . ويساورنا الشك فى أمانة النقل ، فتدل شواهد تاريخية على أن الرهبان أفنوا وأزالوا ما تعارض مع عقيدتهم من كتابات وأقوال .

وإذا كان العرب قد احتفظوا ببعض التراث الأغريقى والرومانى وترجموا منه ومزجوا بينه وبين ثقافتهم وغيرها من الثقافات ، ثم انتقل إلى أوروبا ووصل إلى الأديرة ، فانها (الأديرة) أبقت على هذا التراث ، بل حوت خزائن الكتب فيها كنوزاً ثقافية صانتها من عبث برابرة الشمال . والظاهر أن تعاليم كلونى ورد فيها ما ينص على الحفاظ على الكتب ومشيرة إلى ضرورة أن يكون فى كل دير مكتبة يستمد منها سلاح الحق ومقومات العقيدة .

ويلوح أن عدوى الاهتمام بالكتب وحفظها ، كما سبق أن بينت عن حرص بعض أثرياء وأشراف الأندلس من العرب على اقتنائها ، قد انتقل إلى قلاع الأشراف . فقد أعجب هؤلاء تفاخر الأديرة بما فيها من كتب فزينوا قلاعهم بمكتبات أضحت منافسة للمؤسسات القديمة فى هذا السبيل . واستمرت القلاع والأديرة خزائن للكتب حتى اخترعت الطباعة وانتشرت الجامعات وورثت هذه المهمة .

وإذا كان الرهبان قد اتخذوا من نسخ الكتب مورداً للرزق ، فانهم انتخبوا إنتاجاً أدبياً عن حياة القديسين ، وقصصاً أخلاقية مختصرة وشرحاً للكتاب المقدس وتاريخ الأديرة ، وغير ذلك من الإنتاج الذى سما بعملهم عن مجرد النقل والنسخ ، فهم الذين كتبوا فى الفنون العقلية السبعة الحرة (Sevenliberalarts)

(أو ما يطلق عليها الدراسات الأكاديمية) وللفنون السبعة الحرة قصة ، فان اختفاء بعض العلوم والآداب القديمة ، مع ظهور تفسيرات لما عرف منها وساد العصور الوسطى ، حتم تنظيمها لكى تأخذ الطابع المنهجى للدراسة . ولذلك سادت هذه العصور عبارة « الفنون العقلية السبعة » لتضم جميع العلوم التى كانت معروفة وقتئذ . وقد سبق أفلاطون بأن فرق بين مجموعتين من هذه العلوم ، مجموعة المواد الثلاثية ، والمجموعة الرباعية . والأولى تقوم على دراسة الأدب دراسة بلاغية نحوية ، (القواعد والبيان والنحو) والثانية تهتم بالدراسة العملية ، القائمة على دراسة العلوم الرياضية — الحساب والهندسة — والفلك والموسيقى ، ويذكر منرو (١) ... وكان مارتيانس كابيلا أحد ممثلى الثقافة الوثنية فى شمال أفريقيا ، وقد كتب رسالة (زواج علم اللغة من عطارد) وظلت هذه الرسالة أعظم مرجع تستقى منه المعارف القديمة فى النصف الأول من القرون الوسطى . وقد أراد الإله عطارد الزواج ، وحينئذ أخذت السموات التى قال بوجودها الوثنيون ، تتحرك لتقرر أولا من يتزوج عطارد ، ثم تحتفل باتمام زواجه من أكثر الفتيات ثقافة وهى (الفيلوجيا) أى مادة البحوث

(١) منرو المرجع الأسبق ، ص: ٢٦٦

اللغوية . أما الوصيفات السبع اللاتى قدمهن فوبوس للحاضرين ، فهى مادة النحو ، ومادة المحاورة ، ومادة البلاغة ، ومادة الهندسة ، ومادة الحساب ، ومادة الفلك ، ومادة الموسيقى . وكل واحدة تظهر فى الحفل تذكر أبوبها وأصولها الذين أنجبوها ثم تشرح للحاضرين أصول المادة التى تمثلها ، وقد تضمنت هذه الخطب التى ألقتها الوصيفات ، جميع نواحى المعرفة التى كانت تدرس بالمدارس فى تلك القرون مصوغة فى أسلوب بالغ غاية الخشونة التى نعهدها فى أساليب الكتب المدرسية » .

ومما هو جدير بالذكر أن الهندسة التى كانوا يدرسونها فى تلك الأزمنة كانت تشتمل دائماً على مبادىء الجغرافية ، ويشتمل الفلك على الطبيعة ، والنحو يشمل الأدب ، ويضم البيان ضمن أبوابه التاريخ .

خامساً : الحركة المدرسية : وهذا اصطلاح أطلق على الحياة التعليمية والتربية من القرن الحادى عشر إلى الخامس عشر ، وتمخضت عن ظهور الجامعات . والحركة المدرسية أساوب من أساليب النشاط العقلى ، فقد عهدنا الحياة العقلية فى الشطر الأول من العصور الوسطى خاضعة للكنيسة خضوعاً شديداً . ومع مجىء أفكار وثنية من الشرق ، وذهاب الحملات الصليبية إلى الأراضى المقدسة ، وتأثيرات العرب الفكرية ، كل هذه أثارت التفكير والتساؤل عن سلطان الكنيسة العقلى ، وهزت العزلة التى عاشتها الحياة العقلية فى الغرب . وهدفت الحركة المدرسية إلى الاستعانة بالعقل فى الدفاع عن العقيدة ، وتقوية الحياة الدينية والكنيسة عن طريق تقوية المواهب العقلية ، والقضاء على الشك والإلحاد والهرطقة عن طريق المناقشة . وكان الصراع بين العقل والسلطة الكنسية ... ولكنه صراع من أجل التوفيق .

ومن خلال هذا الهدف تبلورت رسالة الحركة المدرسية ويمكن تلخيصها فى الرغبة فى صياغة المعتقدات فى أسلوب منطقى ويدافع عنها منطقياً ، ولكن فى غير تشكك فى سلطة الكنيسة ، ثم تنظيم المعرفة وصبغها بالصبغة العلمية الشكلية ، ثم إلمام للفرد بتلك المعارف المنظمة . وتظهر روح التوفيق فى هذه

الأهداف ، فلم تحارب الكنيسة ولم يهمل العقل . ولذلك فقد كان منهاج الدراسة مزيجاً من اللاهوت والفلسفة ... بل هو فى الواقع امتزاج بين المعتقدات المسيحية ومنطق أرسطو . فصاغ المنهج المدرسى العقائد اللاهوتية الكبرى صياغة فلسفية كالمشاكل المرتبطة بالقضاء والقدر وحرية الإرادة وعشاء الرب والتثليث وغيرها .

ويلوح أن المعرفة السطحية لبعض جوانب فلسفة أرسطو وأفلاطون جعلت مبادئهما على شىء من الوفاق ، ثم بان فيما بعد اختلاف جوهرى فى نظرية المعرفة ، فأفلاطون اعتقد أن الأفكار هى وحدها التى تتكون منها الحقيقة (المذهب الحقيقى عند المدرسين الأرثوذكس) وهذه الأفكار موجودة فعلا فى العقل الإلهى . أما ما هو موجود فعلا فما هى إلا صور ونماذج وانعكاسات للأفكار الإلهية . ورأى أرسطو أن الأفكار العامة أسماء ، وأن الحقيقة هى الأشياء الموجودة فعلا . كان اختلاف الرأيين ركيزة الحياة العقلية فى هذه الفترة من العصور الوسطى .

وقد سارت نظم التربية المدرسية على أساس منطق المادة ، لا قدرة المتعلمين ، والمنطق المعترف به وقتئذ هو المنطق القياسى . وأدى هذا إلى صب جميع التلاميذ فى قالب واحد ، فكان الطفل — أى طفل — يتعلم بالطريقة التى تناسب عقل الراشد ، ويدرس مثلا مادة النحو بطريقتها المنطقية الدقيقة .

واستمر هذا الاتجاه التربوى سائداً حتى القرن الخامس عشر ، وقد أنتج الكثير من الكتب وأثر فى عقول الدارسين تأثيراً بالغاً . ورآه فلاسفة القرون التالية جديراً بكل سخرية وتهكم . فقد تحولت الحركة المدرسية إلى شكليات تقف فى سبيل كل تقدم ، بل قد وصفت مؤلفاتهم بأنها نوع رخيص من المعرفة وأن مؤلفيها مجانين قد استسلموا لديكتاتورهم أرسطو ، متقوقعين فى أديرتهم بعيداً عن العالم الحقيقى ، ومكبين بمعرفة لا يريدون لها تطويراً ، بل اتهمت مؤلفاتهم بأنها تحوى مجردات عقلية لا قيمة لها صيغت فى أسلوب معقد خشن

مكتظ بالمصطلحات المزعجة . كما تناولت كتبهم ومحاولاتهم مسائل وهمية لا حقائق واقعية .

ومع كل هذا النقد ، فإن لرجال الحركة المدرسية الفضل فى هز العقل وإثارة نشاط فكرى كان الخمول قد استولى عليه عدة قرون . بل إن هذه الحركة مهدت لظهور ونمو الجامعات .

سادساً : الجامعات : اشتهرت بعض المدارس الكاتدرائية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حتى أنها جذبت الطلبة ليدرسوا فيها القانون الرومانى وفلسفة أرسطو والطب إلى جانب الدراسات الأكاديمية (الفنون العقلية السبعة الحرة) . بل إن طلبة كانوا يذهبون إلى مدرسة معينة تبعاً لشهرة أستاذ فيها ، مثل أبيلار فى باريس . وجاء طلبة من مناطق نائية طالبين العلم ، وقد تكونت من مجموعات من الطلبة وأساتذتهم ما يشبه النقابة وأطلقوا عليها إسم Univesitas كما انتظم الطلبة الأغراب فيما سمى Studiumgeneral . وفى القرن الخامس عشر أصبح اسم الجامعة ومدرسة الطلبة المغتربين صنوان .

وتسبب فى ظهور المؤسسات التعليمية الصراع بين المذهبين الواقعى والمثالى ، واحتكاك الأوروبيين بالمسلمين والعرب والثقافة الإغريقية . كما أن ظهور المدن قد غير من وجه الحياة وطور المجتمع الذى تعطش إلى تربية تسايره ، فلم تعد التربية القديمة كافية لسد حاجات هذا المجتمع الذى تغير .

وتميزت الجامعات فى بداية ظهورها بتلقائية الصلة بين الطلبة وأساتذتهم ، هذه الصلة التى كان قوامها النشاط الفكرى والنهم للمعرفة . وربط بين الأساتذه والطلبة عنصر مشترك ألا وهو الفقر . كما أن باب التعليم كان مفتوحاً لكل طالب قادر على دفع مبلغ زهيد جداً للأستاذ على أن يكون ملماً باللغة اللاتينية وهى لغة التعليم . ولم تكن هناك فى بداية الأمر شروط للالتحاق سوى ما ذكرته ، كما أن الجامعات كانت فى منأى عن سلطة الكنيسة والدولة فى فترات نشأتها الأولى (١) .

---

(١) Mulhern, op. cit.,pp.222-226

ثم أغدقت على الجامعات منح ، لعل أهمها المنح البابوية التى أعطت أفرادها حق التجول كمعلمين وكطلبة ، وحمايتهم من الاعتداءات عليهم ، وحق محاكمة الطالب أمام مجلس من الجامعة ، وحقق هذا استقلال الجامعات عن الدولة والكنيسة ؛ ثم حق الخريجين فى التدريس ، وهذا بمثابة شهادة للتخرج ، مع إعفاءات للجامعة وللأساتذة والطلبة من الضرائب والخدمة العسكرية .

ونظمت الجامعات فى أول الأمر على أساس أنها تضم طلبة من دول مختلفة ، وكانوا يقسمون داخلها إلى مجموعات حسب الدول (كنظام الأروقة فى الأزهر) . وقسم الأساتذة إلى أقسام حسب التخصصات : اللاهوت ، القانون المدنى ، الدراسات الأدبية ... الخ ، وكانت الجامعات تعد الطلبة لمهن القانون والطب واللاهوت وللتدريس الجامعى . وكان الطلبة يدرسون أساساً الفنون العقلية الحرة السبعة لمدة تتراوح بين أربع وسبع سنوات ويمنح الطالب بعدها درجة الأستاذية (الماجستير) . ثم يصبح الخريج مدرساً جامعياً إذا وجد طلبة يدرس لهم ، أو يلتحق بوظيفة دينية إذا وجدها ، أو يصبح موظفاً إذا واتته الفرصة ، أو يستكمل الخريج دراسته فى القانون أو الطب أو اللاهوت التى تمتد حوالى ثمانى سنوات ليحصل الطالب على الدكتوراه وتراوحت مدة الدراسة فى الطب والقانون بين خمس وثمانى سنوات .

وكان التنافس بين الأساتذة كبيراً ، فدخلهم الوحيد مما يدفعه الطلبة مباشرة لهم . وقد اعتمد الطلبة فى معلوماتهم على ما يلقى عليهم داخل الدرس وكانوا يحفظون ما يكتبون على ظهر قلب ، فالكتب نادرة . حتى فى تعليم الطب اعتمدوا على معلومات وبعض كتب بسيطة كثيرة منها ما كتبه العرب ، واعتمدت عليه جامعات أوروبا كمؤلفات ابن سينا وشروح وتعليقات عربية فى الطب والعلوم .

ولم يكن الطلبة منزهين عن ارتكاب الأخطاء ، فقد عرفنا عقوبات الفصل والحبس لجرائم كالسرقة وعدم حفظ المواعيد فيدخل الطلبة من النوافذ

بعد غلق الأبواب ، والسحر والنزوير وحمل الخناجر وإحضار نساء خلسة إلى داخل مبانى الجامعة . كما حرم عليهم ارتياد الحانات والمسارح واقتناء حيوانات .

وبدأت الجامعات عهودها الأولى بدون أدوات أو أجهزة أو حتى مبان ، فكانت تتخذ من المزارع أو أفنية الكنائس مقاماً . وكان الطلبة الموسرون يعيشون فى أماكن لا ثقة مع خدمهم . وعاش الفقراء فى أى مأوى يجدونه ، وأحياناً كان يسمح بعض القادرين للطلبة الفقراء بالسكنى فى ردهات أو قاعات سكنهم . ثم ازدادت مكرمات أهل الخير ، فمنحت الجامعات الكتب والمبانى للإقامة .

ومع هذا الشح المادى ، فكانت هناك حرية فى البحث والقول خاصة وأنها لا تخضع للإشراف المالى من الدولة أو الكنيسة ، ولكن هذه الحرية لم تكن مطلقة ، ولم تستمر فقد تعرضت الجامعات وأساتذتها إلى القوى الرجعية كثيراً ، وحلت عليهم صنوف من التهديد والعقاب .

وعندما يتقدم الطالب فى دراسته كان يسمح له بالقاء محاضرات لعدة سنوات ، وكان هذا الطالب يسمى (Bachelor) أى السيد الصغير وهو لقب كان يحمله الفرسان الصغار فى خدمة الفرسان الأكابر . وكان يعقد أحياناً امتحان قبل السماح للطالب بالتدريس ، فإذا نجح أصبح حاملا للدرجة الجامعية الأولى (Bachelovdegree) ثم يستعد الطالب لتقديم رسالة للحصول على درجة الأستاذية (Master'sdegree) أو درجة الدكتوراه ، ويدافع عن رسالته أثناء مناقشتها فى امتحان عام ، غالباً كان يعقد فى الكنيسة ، فاذا نجح فى دفاعه لبس قبعة خاصة ، ثم يدعو أصدقاءه إلى وليمة . ويحق له أن يرتدى (روب الماجستير) .

ولم يسمح للإناث بالدراسة الجامعية ، بل لم يسمح لهن حتى بالزيارة . وكان الطلبة الجدد يخضعون (لمقالب) مضحكة يقوم بها القدامى كبرنامج أساسى فى محاولة إدماج الجدد فى الحياة الجامعية .

هذا ، وكان من أُولَى الجامعات فى أوروبا جامعة بولونا (حوالى نهاية القرن الحادى عشر) ، وجامعة بادوا ونابلى (القرن الثالث عشر) وجامعة روما (القرن الرابع عشر) . وفى أسبانيا أنشئت جامعات أهمها سلمانكا فى القرن الثالث عشر ؛ كما ازدهرت الجامعات فى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وأشهرها جامعة باريس . أما الجامعات الإنجليزية فأشهرها أكسفورد فى أوائل القرن الثانى عشر ، ثم كمبردج فى القرن الثالث عشر .

ومما يذكر بالفضل للعرب ، كما أورد ذلك منرو ، أن الجامعات الأوروبية المسيحية استفادت فى مناهجها ودراساتها بما أعطاه العرب فى ميدان الثقافة فقد أخذ الأوروبيون عن العرب منذ القرن العاشر أو الحادى عشر الأرقام الحسابية الهندسية التى حلت محل الرموز الرومانية المعقدة . كما أثبت العرب كروية الأرض ، وكانوا يدرسون الجغرافية مستعينين بكرات تمثل كل منها الأرض ، فى الوقت الذى اعتقد مسيحيو أوروبا أن الأرض مسطحة . وقد حول الأوروبيون مراصد العرب إلى مغارات لنواقيس كنائسهم ، ونقلوا عنهم الجبر وعلم الحساب العالى . كما ساهم العرب بقسط وافر فى تقدم علوم الطب والتشريح والصيدلة والفلك ووظائف الأعضاء وأضافوا إليها الشىء الكثير من أبحاثهم التى أصبحت أصول هذه العلوم فى عصرنا الحديث . وفى ميدان الطبيعة شرحوا قوانين انتشار الضوء والجاذبية الشعرية ، كما درسوا بعض الظواهر الجغرافية كالشفق وارتفاع الطبقات العليا ووزن الهواء والجاذبية النوعية للأجسام ، ووضعوا الجداول الفلكية ، وصححوا نظريات الموازاة والانعكاس واخترعوا الساعة ذات البندول ... هذا إلى جانب اكتشافاتهم الجغرافية والبحرية وما أدخلوه إلى أوروبا من مأكولات ونباتات كالأرز والقطن ، وصناعات كالسكر والحرير ، بل إنهم أعاروا أوروبا علوم استخدام البوصلة والبارود والمدفع .

وقد أقبل كثيرون من الأساتذة الأوروبيين على دراسة فلسفة ابن رشد وبخاصة ما كان فيها من شروح لفلسفة أرسطو ، بل أصبحت شروحه هذه من

الأساسيات التى تدرس فى جامعات أوروبا ، إلى جانب كتابات ابن سينا .

هذا ، ومع أفول العصور الوسطى وسير الزمن حثيثاً إلى عصر النهضة والتنوير ، كانت مراكز الحياة الفكرية قد انتقلت من سلطان الدين إلى أيدى (الدكاترة) وهم جماعات المدرسين خريجى الجامعات . وقد درس هؤلاء الفلسفة والمنطق إلى جانب دراساتهم الدينية .